جامعة الأزهر الشريف
كلية أصول الدين - القاهرة
قسم التفسير وعلوم القرآن

خطاب القرآن لسيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم بما يوهم ظاهره الجفاء

حسن عبد الحميد وتد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
في كلية أصول الدين - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شرفنا على الأمم بالقرآن المجيد ، وقوم به نفوسنا بين الوعد والوعيد ، وحفظه من تغيير الجهول وتحريف الحاقد العنيد " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " [١]، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة يبقى ذخرها على التأبيد ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله ، أرسله إلى القريب والبعيد، وأنزل عليه القرآن المجيد هدى وهداية ، روحا وحياة ، نورا وضياء، وشفاء ودواء ، ودستورا ومنهاجا ، اللهم صل وسلم وبارك على النبي الأعظم والرسول الأكرم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد

فإن هذا البحث يتناول بالدراسة بعضا من الآيات التي يتبادر إلى ذهن القارئ للقرآن الكريم للوهلة الأولى أن فيها قدحا لعصمة المعصوم صلى الله عليه وسلم — أو أنها تخاطبه بجفاء يتعارض مع ما تنادي به آيات أخرى من وجوب توقيره وبره ، وتعظيمه وتكريمه، والتأدب الكامل معه — صلوات الله وسلامه عليه — ووجوب اتباعه وطاعته في كل ما جاء به ونطق به ، والانتهاء عما نهى عنه ، ووجوب الاحتكام إليه — صلى الله عليه وسلم — وعدم مخاطبته باسمه مجردا، وعدم النداء عليه كما ينادى على غيره، والأمر بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم إلى غير ذلك ،وقد أردت بهذه الدراسة المتواضعة كشف النقاب عن معاني بعض آيات الكتاب بما يجلي وجه الحق فيها — قدر الطاقة ، لا سيما في تلك الظروف التي تمر بها الأمة الإسلامية من حملة شرسة على الإسلام وعلى المسلمين، وعلى كتاب الله رب العالمين — مما يمكن أن يتلقفه الأعداء— وما أكثرهم — ويشوشون به على المثقفين من غير أهل الاختصاص، وعلى أنصاف المثقفين ، ومعدوميها . هذا والبحث لم يستوعب كل الآيات الداخلة في هذا الباب ، وإنما جاء ببعض النماذج فقط، مع صدق النية وتوجه الرغبة في إكمال هذه الدراسة في وقت قريب بمشيئة الله وعونه وتوفيقه ومدده ليتحقق لي ما إليه قصدت ، وفيه رغبت، وعليه عزمت، وعلى كل حال فهذا جهد المقل ، ووسع الطاقة ، والخطأ لازم ، والعصمة ممنوعة ، فإذا كان من توفيق وصواب فهو من الله عز وجل وله الحمد في الأولى والآخرة ، ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه وتعالى ، وإن كان غير ذلك فهو مني ، وحسبي صدق النية ، وبذل الجهد، وحسن القصد ، " وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب " [٢]

* * *

وكتبه
حسن عبد الحميد حسن وتد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بالكلية

---

(١) فصلت (٤٢)

(٢) هود (٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

النموذج الأول :

قال الله تعالى : ــ

" ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتك وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين) البقرة (١٤٥)

الناظر في هذه الآية الكريمة يرى أنها في شأن تحويل القبلة ، والمعنى : ولئن جئت يا رسول الله لليهود والنصارى ومن شاكلهم في الزيغ والإلحاد بكل دليل وبرهان لإثبات أن ما جئت به هو الحق ومن ذلك القبلة التي حولك الله إليها ما تبعوا قبلتك ، وما انصاعوا لك ــ عنادا واستكبارا ــ ، وما أنت يا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ بتابع قبلتهم لكونك المتبع ــ بفتح الباء ــ لا المتبع لهم ، ثم إنهم على ضلال وأنت على هدى ، وفي ذلك حسم لأطماعهم ، ورد لأهوائهم ، وتفنيد لمزاعمهم، ثم بينت الآية اختلاف أهل الكتاب في القبلة ، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى، ثم يحذر القرآن في أسلوب حاسم شديد اللهجة قائلا (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين) أي : والله لئن اتبعت أهواء الضالين والمغضوب عليهم من رب العالمين ، من بعد ما جاءك من الحق واليقين إنك إذا لمن الظالمين لأنفسهم بمخالفة أمري ومعاندة شرعي. والإشكال هنا : هل هذا الخطاب الشديد الصريح المراد به شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم أم غيره ؟

وإن كان غيره فمن هذا الغير ؟ ولم جاء الخطاب على هذا النحو؟

وإن كان صلوات الله عليه هو المراد فكيف يخاطب سيد الأحباب بهذا الخطاب؟؟؟ !!

وحينما نستطلع رأي المفسرين في هذه المسألة في هذا الموضع فإننا نرى ــ على سبيل المثال ــ أبا حيان يقول : إن تعليق وقوع الشئ على شرط لا يقتضي إمكان ذلك الشرط. ، يقول الرجل لامرأته : إن صعدت السماء فأنت طالق ، ومعلوم امتناع صعودها إلى السماء ، وقال تعالى في الملائكة الذين أخبر عنهم أنهم (لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)[1] قال:(ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم

---

(١) التحريم (٦)

كذلك نجزي الظالمين)[1]، وإذا اتضح ذلك سهل ما ورد من هذا النوع وفهم من ذلك الاستحالة لأن المعلق على المستحيل مستحيل . اهـ[2].

وكذا قال الجلال السيوطي في تفسير الجلالين : إن هذا من باب الفرض والتقدير .، واختاره القاسمي في محاسن التأويل ثم قال نقلا عن الزمخشري : وفي ذلك لطف للسامعين ، وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى ، وتهييج وإلهاب للثبات على الحق.[3]، ونقل عن الراغب أن الخطاب للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمعنى به الأمة ، فلا معنى لتخصصه فإن الله تعالى يحذر نبيه من اتباع الهوى أكثر مما يحذر غيره ، فذو المنزلة الرفيعة إلى تحذير الإنذار[4] عليه أحوج حفظا لمنزلته ، وصيانة لمكانته . اهـ وهو كلام نفيس جدا. اهـ[5]

فالخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم ــ على سبيل الفرض والتقدير ، أو الخطاب لحضرته والمراد به أمته ممن يجوز أن يتبع أهواء هؤلاء ، وغير جائز شرعا وعقلا أن يفعل النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما يكون به ظالما ، فهو محمول على إرادة أمته لعصمته ، وقطعنا أن ذلك لا يكون منه ، ولقرينة (وما أنت بتابع قبلتهم) في الآية .

فإن قلت : ما دام الأمر كذلك فلم خوطب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولم يتوجه الخطاب مباشرة لأمته ؟

قلت : كان ذلك زيادة تعظيم للأمر ، ولكونه ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو المنزل عليه القرآن ، ولبيان أن صغائر الكبير كبائر فكيف بالكبائر ، وفيه كما يقول النيسابوري : " لطف للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فإن مزيد المحبة تقتضي التخصيص بمزيد التحذير.[6]

والآية الكريمة كما يقول الأستاذ الأكبر / شيخ الأزهر في تفسيره : وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من اتباع آراء اليهود المنبعثة عن الهوى والشهوة ، وسيق الوعيد والتحذير في صورة الخطاب للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذي لا يتوقع منه أن يتبع أهواء أهل الكتاب تأكيدا للوعيد والتحذير ، فكأنه يقول : لو اتبع أهواءهم أفضل الخليقة وأعلاهم

---

(١) الأنبياء (٢٩) يقول العلامة الآلوسي : والمراد : ومن يقل منهم على سبيل الفرض . انظر روح المعاني ٣٣/١٧

(٢) البحر المحيط ٤٣٢/١

(٣) الكشاف ١٠١/١

(٤) هكذا عبارته . ولعل الصواب : إلى التحذير والإنذار إليه أحوج ...

(٥) محاسن التأويل ٤٧٢/١

(٦) غرائب القرآن ورغايب الفرقان ــ على هامش الطبري ٣٧/٢

منزلة عندي لجازيته مجازاة الظالمين ، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه في الفضل وعلو المنزلة إن اتبعوا أهواء المبطلين وهم اليهود ومن كان على شاكلتهم من المشركين . اهـ [١]

ويقول صاحب تفسير روح البيان : وهذه الجملة الشرطية واردة على منهاج التهييج والإلهاب للثبات على الحق . [٢]

وكذا قال صاحب المنار : إنه على سبيل الفرض [٣]

وذكر الخازن في تفسيره قولين ولم يرجح بينهما قال : قيل هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به الأمة لأنه صلى الله عليه وسلم لا يتبع أهواءهم أبدا، وقيل : هو خطاب له خاصة فيكون ذلك على سبيل التذكير والتنبيه . اهـ [٤]

وهكذا ترى الخازن في تفسيره توقف ولم يناقش القولين وليته أولى الآية اهتماما يرفع عنها اللبس الذي قد يتبادر إلى ذهن القارئ للقرآن الكريم . ، وإذا كان بعض المفسرين ذكر أكثر من رأي ولم يرجح فإن بعضا آخر منهم مر على الآية مر الكرام ولم يشر من قريب أو بعيد إلى أي معنى كالبغوي والشوكاني وابن الجوزي وغيرهم وأما الإمام الفخر الرازي فقد خطأ قول من قال : إن الخطاب هنا للأمة فقط غير داخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ، واختار أن الخطاب للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وللأمة معا ، وعلل مجئ النهى على هذا النحو خطابا خاصا للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بكلام جيد قريب مما مر بنا سابقا ، وعبارته متقاربة مع عبارة النيسابوري في تفسيره . [٥]

ولنا وقفة مع قول من قال : الخطاب للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وللأمة معا . هل يفهم منه مساواة رسول الله بآحاد الأمة في هذا النهى فلا فرق بينه وبين غيره في اتباع أهواء أهل الكتاب ؟؟ .

لا إن مقام النبوة أسمى وأسنى من هذا ، بل الأليق والأوفق أن نقول : إن ذلك من باب الفرض والتقدير كما مر تقريره ، وأما قول الإمام الفخر: لعله عليه الصلاة والسلام كان في بعض الأمور يتبع أهواءهم مثل ترك المخاشنة في القول والغلظة في الكلام طمعا منه عليه الصلاة والسلام في استمالتهم فنهاه الله عن ذلك القدر أيضا وآيسه منهم بالكلية .وهو نفس المعنى الذي قاله الإمام النيسابوري .

---

(١) التفسير الوسيط ٣٨٨/١

(٢) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ١١٩/١

(٣) تفسير المنار ١٨/٢

(٤) تفسير الخازن ١٢٢/١

(٥) تفسير الفخر الرازي ١٣٩/٤ وما بعدها وانظر تفسير النيسابوري على هامش الطبري ٣٧/٢

أقول : إن هذا الكلام لا يليق ومقام النبوة أعنى وصفه باتباع أهوائهم إنما هو الحكمة في تبليغ الدعوة حسبما أمره الله تعالى في قوله " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن" [١] ثم لو سلمنا جدلا بأن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مشاركا للأمة في النهى ، أهذه المشاركة في هذا الموضع فقط أم أنها في كل موضع نظير ما ها هنا من مثل قوله تعالى : " لئن أشركت ليحبطن عملك" [٢] وقوله في الآية التالية لآيتنا " فلا تكونن من الممترين " [٣] ولا قائل بذلك .

والحق ــ حسبما أرى ــ هو ما قاله المفسرون كما سبق ذكره أن الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته ، وهو نفس ما يقال في قوله تعالى " فلا تكونن من الممترين " البقرة ١٤٧

يقول العلامة الألوسي : وليس المراد نهى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن ذلك لأن النهى عن شئ يقتضي وقوعه أو ترقبه من المنهي عنه وذلك غير متوقع من ساحة حضرة صاحب الرسالة ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلا فائدة في نهيه ، ولأن المكلف به يجب أن يكون اختياريا وليس الشك والتردد مما يحصل بقصد واختيار ، بل المراد إما تحقيق الأمر وأنه بحيث لا يشك فيه أحد كائنا من كان ، أو : الأمر للأمة بتحصيل المعارف المزيلة لما نهى عنه فيجعل النهى مجازا عن ذلك الأمر . [٤]

وقال صاحب المنار : والنهى في هذه الآية كالوعيد في الآية السابقة وجه الخطاب به إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمراد أمته من كان منهم غير راسخ في الإيمان وخشى عليه الاغترار بمظاهر أولئك المخادعين الذين يغتر بأمثالهم الأغرار في كل زمان ومكان ولذلك ارتد بفتنة القبلة بعض ضعفاء الإيمان . [٥]

وأورد الزركشي هذه الآية [٦] مع بعض نظائرها تحت عنوان (خطاب العين والمراد الغير) ثم قال : وبهذا يزول الإشكال المشهور في أنه كيف يصح خطابه ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع ثبوت عصمته عن ذلك كله . ، ويجاب أيضا : بأن ذلك على سبيل الفرض، والمحال يصح فرضه لغرض ، والتحقيق أن هذا ونحوه من خطاب العام من غير قصد

---

(١) النحل ١٢٥

(٢) الزمر ٦٥

(٣) البقرة ١٤٧

(٤) روح المعاني ١٤/٢

(٥) تفسير المنار ٢١/٢ وانظر المراجع السابقة

(٦) البقرة (١٤٥)

شخص معين ، والمعنى : اتفاق جميع الشرائع على ذلك. ويستراح حينئذ من إيراد هذا السؤال من أصله اهـ [٢]

النموذج الثاني :

في سورة الأنعام ، يقول الله تعالى :

" وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين" [٢]

إن سياق هذه الآية مسوق لتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الحزن الذي كان يعتريه بسبب إصرار كفار مكة على عنادهم وتكذيبهم وعدم انصياعهم لدعوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، حيث نقل الكلام إلى ساحته سبحانه وتعالى حيث نفى تكذيبهم عن حضرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأثبته لآياته تعالى، ثم تتوالى التسلية ببيان أن الرسل السابقين على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد كذبوا ، ومعلوم أن عموم البلوى يهونها بعض الشئ ، ثم إن الإشارة إلى الرسل السابقين إرشاد له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقتدي بهم في صبرهم على ما لحقهم من تكذيب وإيذاء أقوامهم لهم ، وبيان أن العاقبة لهم والدائرة على مكذبيهم.

ثم تأتي آيتنا في هذا السياق " وإن كان كبر عليك إعراضهم ..." والمناسبة بينها وبين سبقها :

" أن هذه الآية كلام مستأنف مسوق لتأكيد إيجاب الصبر المستفاد من التسلية ببيان أنه أمر لا محيد عنه أصلا " [٣]

وروى الحافظ ابن كثير عن الحبر قال : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ، ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول اهـ [٤] ، وجاء في تفسير الفخر الرازي : المروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن الحرث بن عامر بن نوفل [٥] بن عبد مناف أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في نفر من قريش ، فقالوا : يا محمد ائتنا بآية من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل فإنا نصدق بك ، فأبى الله أن يأتيهم بها فأعرضوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فشق ذلك عليه ، فنزلت هذه الآية .

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢٤٣/٢

(٢) الأنعام ٣٥

(٣) نقله الجمل في حاشيته عن أبي السعود ٢٤/٢

(٤) تفسير ابن كثير ١٣٠/٢

(٥) ويقال : الحارث كما في كتب التفسير انظر روح المعاني ١٣٨/٧

والمعنى : وإن كان كبر عليك إعراضهم عن الإيمان بك ، وصحه القرآن "فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء " فافعل فالجواب محذوف ، وحسن هذا الحذف لأنه معلوم في النفوس . اهـ [١] إنه من الثابت نقلا وعقلا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان شديد الحرص على إيمان قومه وتحقيق هدايتهم ، ولذا كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سألوه آية يود أن ينزلها الله تعالى طمعا في إيمانهم ، فجاءت هذه الآية لتخفف عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يحمل نفسه به ، ولم يطلب منه وإنما هو فرع رحمته التي جبله ربه عليها والتي ذكرها ربنا في قوله " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " [٢] أي : إلا لأجل الرحمة ، أو : إلا حالة كونك رحمة ، وجعله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفس الرحمة مبالغة ، وإما على حذف مضاف أي : ذا رحمة ، أو : بمعنى راحم [٣]. ولكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يحزنه ما يقول الكفار من تكذيبه وعدم التصديق بما جاء به ، فإن الله تعالى قد نهاه عن هذا الحزن المفرط في مواضع عده كقوله " فلا تأس على القوم الكافرين"[٤] ، " فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا " [٥] " فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون " [٦] " لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين " [٧]

قال الراغب في المفردات : البخع : قتل النفس غما ، حثا له ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ترك التأسف اهـ [٨]

وفي آيتنا قال الله له (وإن كان كبر) أي : شق وثقل (عليك إعراضهم) أى: عن الإيمان بما جئت به من القرآن ونأيهم ونهيهم عنه (فإن استطعت) أي : إن قدرت وتهيأ لك (أن تبتغي) تطلب (نفقا في الأرض) سربا ومنفذا ، تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع له آية

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢١٧/١٢

(٢) الأنبياء (١٠٧)

(٣) الفتوحات الإلهية ١٤٩/٢ وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله ادع على المشركين . قال : إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة . ج٢٠٠٧/٤ ، وروى الدارمي في سننه ٩/١ عن أبي صالح مرسلا قال : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة " وكذا أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ـ وصححه ، ووافقه الذهبي ٣٥/١ وانظر تفسير ابن كثير ٢٠٢/٣

(٤) المائدة ٦٨

(٥) الكهف ٦

(٦) فاطر ٨

(٧) الشعراء ٣

(٨) بتصرف المفردات ص ٣٥

يؤمنون بها (أو سلما في السماء) أي : مصعدا تعرج به فيها (فتأتيهم بآية) مما اقترحوا . فافعل ، لكن لم يجعل الله لك هذه الاستطاعة (ولو شاء الله) سبحانه جمعهم على الهدى (لجمعهم على الهدى) بأن يوفقهم للإيمان فيؤمنوا بك ، ولكن الله سبحانه لم يشأ ذلك بسبب سوء اختيارهم للكفر الذي علمه الله تعالى عنهم في الأزل (فلا تكونن من الجاهلين) ولنا مع ختام هذه الآية وقفة متأنية إذ كيف يخاطب ربنا سبحانه حبيبه وخاتم أنبيائه ورسله ، وأكرم خلقه وسيد الأولين والآخرين [١] بهذه الكلمة ؟

قال القاسمي : لم يقل : (لا تكن جاهلا) بل من قوم ينسبون إلى الجهل ، تعظيما لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن لم يسند الجهل إليه للمبالغة في نفيه عنه ، وما فيه من شدة الخطاب سره : تبعيد جنابه الكريم عن الحرص على ما لا يكون اهـ [٢]

وقال القاسمي بعد ذلك : والجزع في مواطن الصبر مما لا يليق إلا بالجاهلين اهـ ولا أدري كيف جرى قلم الشيخ ــ رحمه الله ــ بهذه الكلمة ، فالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يجزع حتى يقال ما قيل ، إنما كان شديد الحرص ، وكأن الله تعالى يقول له : إذا علمت أني لم أشأ هدايتهم فلا تكن بحرصك الشديد على إسلامهم ورغبتك في تحقق مقترحاتهم من قوم ينسبون إلى الجهل بدقائق شئونه تعالى في خلقه .

قال العلامة الآلوسي : وفي خطابه سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب دون خطابه بما خوطب به نوح عليه السلام من قوله سبحانه (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) [٣] إشارة إلى مزيد شفقته صلى الله عليه وسلم واشتباب [٤] حرصه عليه الصلاة والسلام . [٥]

وقال الفخر الرازي : هذا النهى لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة كما أن قوله (ولا تطع الكافرين والمنافقين) [٦] لا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم أطاعهم وقبل دينهم ، والمقصود أنه لا ينبغي أن يشتد تحسرك على تكذيبهم فإنك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل ،

---

(١) أخرج الإمام مسلم في كتاب / الفضائل ــ ب / تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق . بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع " صحيح مسلم بشرح النووي ٣٧/١٥

(٢) محاسن التأويل ٣٥٤/٤

(٣) هود ٤٦

(٤) وفي اللسان : الشب : ارتفاع كل شئ ــ مادة (شب) باب الشين فصل الباء المشددة ٢١٨٢/٤

(٥) روح المعاني ٣٩/٧

(٦) الأحزاب ١

والمقصود من تغليظ الخطاب التبعيد له عن مثل هذه الحالة . اهـ ملخصا [١]

إذن تغليظ الخطاب لإبعاده ودفعه ومنعه مما يرهق به نفسه ــ صلى الله عليه وسلم ، ويثقل به كاهله شفقة عليه ، وحبالة ، وحفظا لصحته وسلامته ، ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم نقول : مثل ذلك مثل الأب الشفيق الرحيم الذي يدفعه فرط حبه لابنه وخوفه عليه أن يدخل عليه وهو يذاكر بجد يفوق الحد ، واجتهاد يغلب الطاقة، ويكاد يهلك نفسه وهو يقوم بمهمته ، فيوجه له خطابا شديد اللهجة ، متسما بطابع الحسم دفعا له وفعاله إلى امتثال النصيحة ، ولولا زيادة الحرص والجد من جهة الابن وزيادة الحب والشفقة من جهة الأب لما كان النصح على هذا النحو ولله در العلامة الآلوسي حين قال : جاءت الآية إشارة إلى مزيد حرصه ــ صلى الله عليه وسلم ــ على إيمان قومه وتحصيل مطلوبهم ، إشارة إلى توبيخ القوم حين يصل الأمر بالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى هذا الحد ، وهم باقون على ما هم عليه من عناد وجحود . اهـ بتصرف وتلخيص [٢]

وعبارة البغوي : (فلا تكونن من الجاهلين) أي : بهذا الحرف وهو قوله : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) وأن من يكفر فلسابق علم الله فيه . [٣]، ونقل الزركشي في البرهان عن ابن عطية قوله : ويحتمل أن يكون التقدير: (فلا تكونن من الجاهلين) في ألا تعلم أن الله لو شاء لجمعهم ، ويحتمل أن يهتم بوجود كفرهم الذي قدره وأراده . ، ثم قال : ويظهر تباين ما بين قوله تعالى لمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ (فلا تكونن من الجاهلين) وبين قوله عز وجل لنوح عليه السلام (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) [٤] وقد تقرر أن محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ أفضل الأنبياء .

وقال مكي والمهدوي : الخطاب بقوله (فلا تكونن من الجاهلين) للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمراد أمته ، وهذا ضعيف ولا يقتضيه اللفظ ، وقال قوم : وقر نوح عليه السلام لسنه وشيبه .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢١٩/١٢ وبنحو هذا قال الخازن في تفسيره ١٣١/٢ والقرطبي ٤١٨/٦

(٢) روح المعاني ١٣٩/٨

(٣) يبعض تصرف تفسير البغوي على هامش الخازن ١٣١/٢ ولكن القاضي عياض أبطل هذا المعنى وعلل ذلك بأن أقل الناس ايمانا لا يجهل أن الله لو شاء لجمعهم على الهدى فكيف بسيد أهل الإيمان إذ فيه إثبات الجهل بصفة من صفات الله وذلك لا يجوز على الأنبياء، والمقصود بالآية وعظه صلى الله عليه وسلم أو هو خطاب للأمة المحمدية . انظر الشفاء ١٠٢/٢

(٤) هود ٤٦

وقال قوم : جاء الحمل على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لقربه من الله ومكانته كما يحمل العاتب على قريبه أكثر من حمله على الأجانب .

قال : والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجئ بحسب النبيين ، وإنما جاء بحسب الأمر من الله ، ووقع النبي عنهما والعقاب فيهما . اهـ [١]

وعلى ضوء ما سبق نرى أن الآية من باب التربية والتعليم والتوجيه من الله تعالى لحبيبه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ والنصح له والشفقة عليه إعلاء لقدره، وإظهارا لعظيم فضله ، لئلا يبالغ في الشفقة على غير أهلها ، ولئلا يحرص على ما لا يكون ، فهؤلاء لا يؤمنون ، ولذا قال بعدها " إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون " فالموتى هم الكفار شبههم بهم بجامع عدم السمع المترتب عليه الانصياع .

نعم إن التربية الحقة تقتضي ــ مع التسلية والترويح والتخفيف والحنو على المربي والشفقة عليه وإفساح الأمل أمام عينيه ــ الجد الصارم والحسم الجازم ، وعدم المواربة في الخطاب ، ولا غرو فالمربي هنا هو الله الخالق البارئ المصور العليم بخلقه، والمربي هنا هو أفضل أولي العزم سيد الأنبياء والرسل ، بل سيد وأفضل الخلق أجمعين ، وفي هذا درس عظيم لكل المربون والمربين

أفيمكن بعد هذا أن يتوهم متوهم أن في هذه الآية انتقاصا من قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إجحافا بحقه أو تهوينا من شأنه ؟؟ !!

أيعقل أن يثنى عليه عاقل ــ فضلا عن الحكيم جل شأنه ــ في موضع بل في مواضع ، ويبرز للعالمين فضله وقدره ، ويحث الجميع على إعزازه وتوقيره ونصره ، والتأدب معه في حضرته وفي غيبته ، ثم يأتي في موضع آخر ويقلل من هذا القدر ويحط من تلك المنزلة . !!

النموذج الثالث :

قال الله تعالى : " ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم " [٢]

إن ظاهر هاتين الآيتين يستدل به من يقول بجواز الخطأ على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ دون أن يقر عليه ، وقد فصل الخازن ذلك وبينه فراجعه إن شئت [٣] ، وقال الإمام الفخر : تمسك الطاعنون

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٤٤/٢

(٢) الأنفال الآيتان ٦٧ ، ٦٨

(٣) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل ٥١/٣

في عصمة الأنبياء ــ عليهم السلام ــ بهذه الآية من وجوه خمسة ، ذكرها ثم أجاب عنها . (*)

سبب نزول الآية : ذكر الواحدي روايات متعددة بألفاظ متقاربة تبين سبب نزول الآية ، منها ما ذكره بسنده عن ابن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر والتقوا فهزم الله المشركين وقتل منهم سبعون رجلا ، وأسر منهم سبعون رجلا استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليا فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا لنا عضدا فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما ترى يابن الخطاب ؟ قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ولكن أرى أن تمكنني من فلان ــ قريب لعمر ــ فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان ــ أخيه ــ فيضرب عنقه حتى يعلم الله عز وجل أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وقادتهم ؛ فهوى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، فأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : غدوت إلى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وإذا هما يبكيان ، فقلت : يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبكي للذي عرض على أصحابك من الفداء ، لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة ــ لشجرة قريبة ــ وأنزل الله عز وجل : " ما كان لنبي أن يكون له أسرى ... " إلى قوله " لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم " . [٢]

وفي رواية أخرى بزيادة : " وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب فأضرم الوادي عليهم نارا ، ثم ألقهم فيه قال : فسكت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلم يرد عليهم شيئا ثم قال فدخل ، فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس يأخذ بقول عمر ، وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ، ثم خرج عليهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي تحقيق الأستاذ السيد صقر ص ٢٧٥ وأخرجه مسلم في صحيحه ك / الجهاد والسير حديث (١٧٦٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٨٦/١٢ وانظر ابن كثير ٣٢٥/٢ ، وفيه روايات متعددة بألفاظ متقاربة ، وانظر البغوي والخازن في تفسيرهما ٥٠/٣ ــ زاد المسير لابن الجوزي ٣٧٩/٣ ، محاسن التأويل للقاسمي ٣٣٥/٥

(*) تفسير الفخر الرازي ٢٠٥/١٥ وما بعدها .

بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال " فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم " [١] وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال " إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم " [٢] وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال " ربنا أطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم" [٣] وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام قال " رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا " [٤] أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق، قال ابن مسعود قلت : يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع على حجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلا سهيل بن بيضاء ، فأنزل الله عز وجل : " ما كان لنبي أن يكون له أسرى " إلى آخر الآية .[٥]

(ما كان لنبي) أي : ما صح وما استقام لنبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، (أن يكون له أسرى) أي : أن يحبس كافرا قدر عليه[٦] للفداء أو المن عليه قبل الإثخان في الأرض أي : قبل المبالغة في القتل والإكثار منه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الإسلام ويستولي أهله . (تريدون عرض الدنيا) يقول الآلوسي: استئناف مسوق للعتاب ، والمعنى : تريدون حطام الدنيا بأخذكم الفدية [٧]. (والله يريد الآخرة) أي : يريد لكم ثواب الآخرة ، أو : سبب نيل الآخرة من الطاعة بإعزاز دينه وقمع أعدائه (والله عزيز) غالب على ما أراد (حكيم) فيما يأمر به عباده ، ويعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها على وجه الحكمة (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) قال شيخ المفسرين ما ملخصه : لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ بأن الله محل لكم الغنيمة ، وأن الله لا يعذب أحدا شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لنا لكم من الله بأخذكم الغنيمة والفداء عذاب عظيم . [٨] وأيد الحافظ ابن كثير في تفسيره ما

---

(١) ابراهيم ٣٦

(٢) المائدة ١١٨

(٣) يونس ٨٨

(٤) نوح ٢٦

(٥) كذا في تفسير ابن كثير وعزاه للإمام أحمد ، والترمذي من حديث أبي معاوية عن الأعمش به ، والحاكم في مستدركه وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ٣٢٥/٢ وكذا في القرطبي ٤٧/٨ وذكره الواحدي في أسباب النزول بألفاظ متقاربة ص ٢٧٤ وما بعدها.

(٦) أسرى جميع أسير وهو : المأخوذ المقيد كما قال الراغب في المفردات ص ١٣

(٧) روح المعاني ٣٣/١٠

(٨) تفسير الطبري ٣٢/١٠

رجحه شيخه ودلل عليه قائلا : ويستشهد لهذا القول بما في الصحيحين عن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي" الحديث وفيه " وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي".[١] وكذا نحا القرطبي في تفسيره ، لكن يعكر على هذا المختار عند الطبري وابن كثير والقرطبي وغيرهم من أن المراد بقول ربنا (لولا كتاب من الله سبق) أي : بإحلال الغنائم لهذه الأمة أن حل الغنيمة كان معلوما قبل ذلك فأول غنيمة في الإسلام كانت حين أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش ومعه ثمانية رهط من المهاجرين فأخذوا عيرا لقريش ، فاقتسموها بعد ما أنزلت آية البقرة . " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ... " [٢]

اللهم إلا أن يقال : المراد بإحلال الغنائم هنا بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية، أو لظنهم أن ما حدث في سرية عبد الله بن جحش حكم خاص لا سيما وليس فيها نص صريح كما ها هنا .

وفي محاسن التأويل : لأئمة التفسير أقوال في تفسير (كتاب) في هذه الآية ، فقيل : هو أنه لا يعذب قوما إلا بعد تقديم النهى ، ولم يتقدم نهى عن ذلك .، وقيل : هو أنه لا يعذب المخطئ في اجتهاده ، وقيل : هو كون أهل بدر مغفورا لهم ، وقيل: هو حل الغنائم .[٤]

وقد ناقش هذه الأقوال الإمام الفخر في تفسيره ، ثم استظهر أن يكون المعنى : لولا أنه تعالى حكم في الأزل بالعفو عن هذه الواقعة لمسهم عذاب عظيم ، وهذا هو المراد من قوله " كتب ربكم على نفسه الرحمة".[٥]

وقال العلامة الآلوسي : ولا يبعد عندي أن يكون المانع من مساس العذاب كل ما تقدم ، ثم قال : وبهذا يجمع بين الروايات المختلفة عن الحبر في بيان هذا الكتاب[٦].

هل الآية تقدح في العصمة أم لا ؟ ولك أن تقول : هل في الآية عتاب صريح للمعصوم صلوات الله عليه أم لا ؟

وإذا كان فيها عتاب فما وجهه ؟ هل لكون النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ اجتهد ولم يصب فيما ليس فيه وحي ؟ ومعلوم في الشرع أن من

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٢٦/٢ والحديث أخرجه البخاري في ك التيمم / حديث ٣٢٥ انظر فتح الباري ٢٥٥/٢ وأخرجه مسلم في ك / المساجد ومواضع الصلاة ح / ٥٢١ صحيح مسلم بشرح النووي ٣/٥

(٢) البقرة ٢١٨ وانظر سيرة ابن هشام (سرية عبد الله بن جحش) ٢٣٨/٢

(٤) ٣٣٧/٥

(٥) الأنعام ٥٤ ــ وانظر تفسير الفخر الرازي ٢١٠/١٥

(٦) روح المعاني ٣٥/١٠

اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد [١] فهل بين ما يقتضيه الخبر من ثبوت الأجر الواحد للمجتهد المخطئ وبين عتابه صلى الله عليه وسلم على ما يقع منه — كما يقول العلامة الآلوسي منافاة أم لا ؟ قال رحمه الله : لم أر من تعرض لتحقيق ذلك وإذا قيل بالأول — أي بينهما منافاة — لا يتم الاستدلال بالآية كما لا يخفى . [٢]

الظاهر من أقوال كثير من المفسرين أن الآية عتاب من الله تعالى لنبيه — صلى الله عليه وسلم — وهو مقتضى ظاهر النص كما لا يخفى ، وهو عتاب لا على خطأ وحاشاه صلوات الله عليه بدليل تأييد الوحي له فيما بعد ، بل هو عتاب على ترك الأولى ، إذ كان الأولى له صلى الله عليه وسلم تدارك كثرة القتل فيهم لا الفداء ، وإذن فليس عتابا على ترك واجب أو فعل غير جائز إذ منصب النبوة أصون وأجل من هذا .

ثم إنك لو أمعنت النظر في الآية لوجدت التلطف ومراعاة المقام النبوي في ثنايا الكلمات ، فقد بدأت الآية بقول ربنا " ما كان لنبي " ولم تقل : ما كان لك ، أو ما كان أيها النبي ، أو نحو ذلك وإنما عبر بذلك — كما يقول العلامة الآلوسي : تلطفا به — صلى الله عليه وسلم — حتى لا يواجه بالعتاب . [٣] ، وذهب البعض إلى أن في الكلام حذفا من باب الإضافة والتقدير : ما كان لأصحاب النبي ، بدليل قول الله بعد " تريدون .. " ولو قصد بالكلام خصوص رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لقال القرآن : تريد ، وعلى هذا فالعتاب — كما أفادته عبارة القرطبي — إنما كان متوجها بسبب من أشار على النبي — صلى الله عليه وسلم — بأخذ الفدية ، أما النبي صلوات الله عليه فما أراد قط عرض الدنيا ، وعزا القرطبي هذا القول لأكثر المفسرين وقال : وهو الذي لا يصح غيره ، وجاء ذكر النبي — صلى الله عليه وسلم — في الآية حين لم ينه عنه حين رآه من العريش [٤] ، وإذ كره سعد بن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحة ، ولكنه عليه السلام شغله بغت الأمر ونزول النصر ، فترك النهى عن الاستبقاء ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآيات، والله أعلم اهـ ببعض تصرف [٥]

---

(١) أخرج ابن ماجه في كتاب الأحكام — ب — الحاكم يجتهد فيصيب الحق — بسنده عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر " ح / ٢٣١٤ سنن ابن ماجه ٧٧٦/٢

(٢) روح المعاني ٣٤/١٠

(٣) المرجع السابق نفس الموضع

(٤) قد كان صلى الله عليه وسلم في عريشه ، وسعد بن معاذ في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وسعد يرى المقاتلين يأسرون الأعداء ، فرأى النبي الكراهة في وجه سعد لما يصنع الناس ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ؟ قال : أجل والله يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل أحب إلى من استبقاء الرجال . انظر سيرة ابن هشام ٢٦٨/٢

(٥) تفسير القرطبي ٤٦/٨

فعلى هذا يكون العتاب موجها لأصحابه لا إليه صلى الله عليه وسلم ، وكان موجها لهم ليس على اختيار قبول الفداء فإن الرسول قد أقرهم عليه ، وإنما العتاب موجه لهم لاستبقائهم أسرى في ميدان القتال وجمعهم في مكان ، وكان عليهم الاثخان فيهم بالقتل لأن شرط الأسر هو الإثخان في الأرض ، وفي القرطبي : وقد قيل : إنما عوتبوا لأن قضية بدر كانت عظيمة الموقع والتصريف في صناديد قريش واشرافهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق ، والتملك وذلك كله عظيم الموقع ، فكان حقهم أن ينتظروا الوحي ولا يستعجلوا فلما استعجلوا ولم ينتظروا توجه عليهم ما توجه . والله أعلم . [١]

وهذا هو الرأي المرتضى عند أستاذنا الدكتور/ منيع في كتابه حيث قال بعدما حكى قول القرطبي : أما مسألة عتابهم على قبول الفداء ففيها نظر لقوله تعالى " فكلوا مما غنتم حلالا طيبا " [٢]

وينصر هذا الاتجاه ما قاله ابن كثير في تفسير سورة محمد : قال : والظاهر أن هذه الآية — يعني (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) [٣] — نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله تعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقليل من القتل يومئذ فقال (ما كان لنبي أن يكون له أسرى ..). [٤] وبنحو هذا قال ابن الجوزي في تفسيره [٥]

ويمكن أن يقال : ما كان ينبغي لكم أن تنشغلوا بالأسرى وأن تستكثروا منهم ، بل كان الأنسب مع هؤلاء هو القتل والإثخان ، تريدون عرض الدنيا من الغنائم والسلب، والخطاب لمن أراد ذلك منهم وتجرد غرضه لغرض الدنيا والاستكثار منها ، وليس لجميعهم — (والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق) بنصركم عليهم وإذلالهم لمسكم بسبب جمعكم للغنائم وحرصكم على تكثير الأسرى — عذاب عظيم من هؤلاء بأن يعطفوا عليكم ويحوطوكم فلا تستطيعون خلاصا ولا تجدون فكاكا .

ويمكن أن يقال أيضا : نعم سلمنا أن في الآية عتابا لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولأصحابه الذين مالوا إلى أخذ الفداء لا لكون ذلك محرما فقد نزل ما يبين حله مع نزول العتاب ، وإنما العتاب المعنى به هؤلاء الكفار ، كأن الله تعالى يقول : إن هؤلاء لا يليق معهم وبهم إلا

---

(١) المرجع السابق ٤٨/٨

(٢) تفسير سورة الأنفال ص ٢٠٨ أ.د/ منيع عبد الحليم محمود

(٣) محمد ٤

(٤) تفسير ابن كثير ١٧٣/٤

(٥) زاد المسير ٣٨٠/٣ وما بعدها

القتل ولا يستحقون منكم إلا الإثخان ، فهم الذين حاربوكم بكل ما يملكون من سلاح في مكة قبل الهجرة وهنا في بدر ، إنهم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، فلولا كتاب من الله سبق في تأييدكم ونصركم وقهر عدوكم على أيديكم حتى استوليتم عليهم قتلا وأسرا وجمعا للغنيمة على قلة عددكم وعددكم ، لمسكم بسبب ما أخذتم من غنائمهم وفدائهم عذاب عظيم منهم لكونه الأكثر منكم عددا وعددا ، ولكنه سبحانه وتعالى سهل عليكم ولم يمسكم منهم عذاب لا بقتل ولا أسر ــ كما حدث منكم معهم ــ وذلك الحكم السابق في قضائه أنه يسلطكم عليهم ولا يسلطهم عليكم وصدق الله " وإن جندنا لهم الغالبون" (١)

هذا وقد نحا القاضي عياض في الآية منحى آخر فقال ما ملخصه :

(ما كان لنبي أن يكون له أسرى) أي : قبلك يا محمد ، أما أنت فقد خصك الله بذلك كقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ " أحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي" (٢) وأما قوله تعالى " تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم " فهو خطاب لجماعة من المؤمنين تجرد غرضهم للدنيا فقط ، وليس المراد بذلك النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا علية أصحابه اهـ (٣) وحاشا لمن خير أن يكون ملكا نبيا أو عبدا نبيا فاختار الثانية، وعرض عليه أن تكون جبال تهامة له ذهبا فأبى صلوات الله وسلامه عليه فأين هو من عرض الدنيا (٤) ، أما من أشار من كبار الصحابة كأبي بكر وغيره بقبول الفداء فلم يكن رأيهم صادرا عن رغبة في دنيا زائلة بل لاعتبارات شرعية أخرى ، فإن من أنفق كل ماله في سبيل الله ابتغاء مرضاته لا يسعى لحفنة من المال تعود عليه من الفداء.

ولك أن تقول : إن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ هنا لم يقع في خطأ أو محظور شرعي ــ وحاشاه ــ لأن قبوله للفداء كان بعد مشاورة أصحابه ، ثم اختار الرأي الذي يتواءم مع ما جبل عليه من الرحمة "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (٥) ثم إن الوحي أقر هذا الأمر ولم يغيره ، بل أقره لمبدء إسلامي ثابت ،

---

(١) الصافات ١٧٣

(٢) الحديث متفق عليه . سبق تخريجه

(٣) الشفاء ١٦٠/٢

(٤) وفي تفسير ابن كثير رواية عزاها للإمام أحمد بن حنبل عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عرض على ربي عز وجل ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا ، فقلت : لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما ــ أو نحو ذلك ــ فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك " ورواه الترمذي في الزهد ، وقال : هذا حديث حسن ، وعلى بن يزيد يضعف في الحديث اهـ ٦٤/٣

(٥) الأنبياء ١٠٧

قال ابن كثير: وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة ، وإن شاء فادي بمال كما فعل بأسرى بدر، أو فادى بمن أسر من المسلمين كما فعل ــ صلى الله عليه وسلم ــ في تلك الجارية وأبنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع حيث ردهما وأخذ في مقابلها من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرق من أسر . هذا مذهب الشافعي وطائفة من العلماء ، وفي المسألة خلاف بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه.(١)

ومما يزيد ما سبق قوة قوله تعالى " فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا " حيث أمرهم الله ــ إباحة ــ بالأكل مما غنموا ، ثم وصفه بكونه (حلالا) ثم زاد الأمر بيانا بتوكيد الصفة بقوله (طيبا) ، يقول الآلوسي : أكد الإباحة لما في العتاب من الشدة.(٢)

فإن قلت : إذا كان الأمر على ما ذكرت فلماذا بكى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر حتى قال عمر بن الخطاب ما قال ــ على ما سبق ذكره في سبب النزول قلت : قال الدكتور/ أحمد جمال العمري فيما يصلح جوابا لهذا التساؤل : الصواب أن هذا الذي عرض عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ من عذابهم كان قبل نزول الآيات المقررة تصحيح عمله وتأييد موقفه ، وتثبيته فيما انشرح إليه صدره من رأي أبي بكر، وفائدة هذا العرض زيادة المنة من الله تعالى بتعظيم النعمة عليه فيما أباحه لهم مما كان محرما على من قبلهم ، وذلك ببيان ما يستحق هؤلاء الأسرى من الجزاء والعقاب لو جرى الأمر على ما كان مما هو مشروع من قبل ، فعذابهم هذا الذي رآه صلى الله عليه وسلم هو الذي يستحقونه لو لم يكن ما شرعه الله مما هدى إليه رسوله الصادق الأمين من قبوله الفداء وأخذ الغنائم ، ثم بعد إظهار ذلك لحضرة المصطفى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بكى لأنه ظن أن هذا هو حكم الله فيهم وظن أنه أخطأ فيما جنح إليه ورآه، ثم أعلمه الله جل شأنه بصحة ذلك وأنه هو الحق بما أنزل عليه من الآيات البينات التي صوبت عمله ، وأيدت قوله وفعله ، وجعلت ما ذهب إليه شريعة متبعة وسنة قائمة ونظاما من أصول الأنظمة الحربية في شأن الأسرى إلى قيام الساعة اهـ(٣)

النموذج الرابع :

يقول ربنا سبحانه : " عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين " التوبة (٤٣)

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٢٦/٢

(٢) بتصرف يسير من روح المعاني ٣٦/١٠

(٣) السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض ص ٤٢٠ ط دار المعارف ١٩٨٨م

(العفو) من أسم ء الله تعالى وهو فعول من العفو وهو : التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه ، وأصله : المحو والطمس ، وهو من أبنية المبالغة ، يقال : عفا يعفو عفوا ، قال ابن الأنباري (عفا الله عنك) محا الله عنك اهـ [١]

وإذا كان العفو هو التجاوز عن الذنب ـ كما يقول اللغويون ـ فإن ظاهر الآية يدل على أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يصب فيما فعل من إعطاء الإذن لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوه ـ دون عذر ـ في التخلف عن غزوة تبوك .

وهذا الظاهر المتبادر من الآية هو ما نستطلع فيه رأي المفسرين لنرى ماذا قالوا ، وما هو وجه الحق الحقيق بالتوجه إليه والقول به في هذه الآية مما يتواءم ولا يتصادم مع عصمة المعصوم صلى الله عليه وسلم .

قال ابن الجوزي : كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أذن لقوم من المنافقين في التخلف لما خرج إلى تبوك ، قال ابن عباس : ولم يكن يومئذ يعرف المنافقين ، قال عمرو بن ميمون : اثنتان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤمر بهما إذنه للمنافقين ، وأخذه الفداء من الأسارى فعاتبه الله كما تسمعون ، قال مورق : عاتبه ربه بهذا ، وقال سفيان بن عيينة : انظر هذا اللطف بدأه بالعفو قبل أن يعيره بالذنب [٢] ، وقال ابن الأنباري : لم يخاطب بهذا لجرم أجرمه ، لكن الله وقره ورفع من شأنه حين افتتح الكلام بقوله (عفا الله عنك) كما يقول الرجل لمخاطبه إذا كان كريما عليه: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي ، ورضى الله عنك هلا زرتني . اهـ [٣]

وقريبا من هذا الذي ذكره ابن الجوزي قال البغوي في تفسيره [٤] .

وروى الحافظ ابن كثير عن ابن أبي حاتم بسنده عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ، نداء بالعفو قبل المعاتبة ، وكذا قال مورق العجلي وغيره، وقال قتادة : عاتبه كما تسمعون ، ثم أنزل التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال " فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم " الآية [٥]

---

(١) انظر اللسان ـ مادة : عفا ٣٠١٨/٤ والمفردات للراغب ص ٣٥١

(٢) غفر الله لعلمائنا الأجلاء على عباراتهم الشديدة مع سيد الأنبياء

(٣) زاد المسير ٤٤٤/٣ وما بعدها

(٤) تفسير البغوي على هامش الخازن ١٠٢/٣

(٥) النور ٦٢ وفي تفسيرها نقل القرطبي قول قتادة : إن هذه الآية منسوخة بقوله " عفا الله عنك لم أذنت لهم " اهـ ٣٢١/١٢ هكذا ولم أقف فيما تحت يدي من مصادر على من قال بهذا أو ناقش قضية النسخ هذه سواء أكانت آية النور هي الناسخة ، أو هي المنسوخة ، وأرى أنه لا نسخ بينهما إذ لا =

وكذا روى عن عطاء الخراساني اهـ [١]

وذكر الخازن في تفسيره قول عمرو بن ميمون ـ السابق ـ وكذا قول سفيان ابن عيينة ثم قال : استدل بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنوب من الأنبياء وبيانه من وجهين : أحدهما : أنه سبحانه وتعالى قال : (عفا الله عنك) والعفو يستدعي سابقة الذنب .

ثانيهما : أنه تعالى قال (لم أذنت لهم) وهذا استفهام معناه الإنكار، فدل ذلك على أن ذلك الإذن كان معصية .

والجواب عن الأول : إنا لا نسلم أن قوله تعالى (عفا الله عنك) يوجب صدور الذنب ، بل نقول : إن ذلك يدل على المبالغة في التعظيم والتوقير ، فهو كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظما له : عفا الله عنك ما صنعت في أمري ، رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي ، وعافاك الله ، وغفر الله لك ، كل هذه الألفاظ في ابتداء الكلام وافتتاحه تدل على تعظيم المخاطب به ، ثم استشهد بشعر لعلي بن الجهم يخاطب به المتوكل .

والجواب عن الثاني : أنه لا يجوز أن يكون المراد بقوله (لم أذنت لهم) الإنكار عليه . وبيانه : إما أن يكون قد صدر عنه ذنب في هذه الواقعة أولا . فإن كان قد صدر عنه ذنب فذكر الذنب بعد العفو لا يليق ، فقوله (عفا الله عنك) يدل على حصول العفو ، وبعد حصول العفو يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه ، وإن لم يكن قد صدر عنه ذنب امتنع الإنكار عليه ، فثبت بهذا أن الإنكار يمتنع في حقه صلى الله عليه وسلم [٢]

وقال القاضي عياض في كتابه الشفاء في الجواب عن قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم) إنه أمر لم يتقدم للنبي صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهى فيعد معصية ، ولا عده الله عليه معصية، بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب إلى ذلك ، قال نفطويه : وقد حاشاه الله من ذلك بل كان مخيرا في أمرين ، قالوا : وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه فيه وحي ، فكيف وقد قال الله سبحانه وتعالى (فأذن لمن شئت منهم) [٣] فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم أنه

=تعارض فآية التوبة في حق المنافقين وآية النور في حق المؤمنين بدلالة السياق ، ومعنى آية النور كما قال الشوكاني : أي إذا استأذن المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض الأمور التي تهمهم فإنه يأذن لمن شاء منهم ويمنع من شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التي يراها صلى الله عليه وسلم . الخ انظر فتح القدير ٨٣/٤

(١) تفسير ابن كثير ٣٦٠/٢

(٢) وبهذا قال الإمام الفخر وفيه زيادة على ذلك انظر تفسيره ج ١٦ / ٧٥

(٣) النور ٦٢ ويسلم هذا القول إن ثبت أن نزول آية النور كان قبل نزول آية التوبة ، ولكني أرى أنه لا ينبغي الربط بين الآيتين ، فإنهما وإن كان موضوعهما العام واحدا ، هو إذن الرسول صلى الله عليه=

لو لم يأذن لهم لقعدوا ، وأنه لا حرج عليه فيما فعل ، وليس عفا هنا بمعنى غفر بل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق" [١] ولم تجب عليهم قط ، أي : يلزمكم ذلك ، ونحوه للقشيري قال : وإنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب ، قال : ومعنى (عفا الله عنك) أي : لم يلزمك ذنب ، وقال الداودي : إنها تكرمة ، وقال مكي : هو استفتاح كلام مثل : أصلحك الله وأعزك، وحكى السمرقندي أن معناه : عافاك الله ، وقيل معناه : أدام الله لك العفو لم أذنت لهم يعني في التخلف عنك ، وهذا يحمل على ترك الأولى والأكمل لا سيما وهذه كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا . اهـ [٢]

وما قاله القاضي عياض من أن أهل العلم لم يعدوا هذا الكلام معاتبة فيه شئ من التجوز ، وإغماض العين عمن قال ذلك من العلماء والمفسرين ، وإلا فقد بذلك كثير منهم .

ونقل القرطبي أقوال بعضهم ولم يرجح بينها ، فمن قائل إنه افتتاح كلام ، ومن قائل : إنه إخبار بالعفو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فرقا ، ثم ذكر أن النحاس اختار أنه صلى الله عليه وسلم أذنب في إذنه [٣] لهؤلاء ، ثم نقل القرطبي ولم يناقش قول عمرو بن ميمون، واكتفى بنقل وعزو الأقوال . [٤]

وارتضى شيخ المفسرين أن الآية عتاب من الله تعالى ذكره عاتب بها نبيه صلى الله عليه وسلم في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه حين شخص إلى تبوك لغزو الروم من المنافقين ... الخ . [٥]

وذكر النيسابوري أقوال العلماء على نحو ما في القرطبي وغيره ثم قال : والذي عليه المحققون أنه : محمول على ترك الأولى ، وقوله (عفا الله عنك) إنما جاء على عادة العرب في التعظيم والتوقير ، فيقدمون أمثال ذلك بين يدي الكلام ــ حسبما ذكر آنفا عن الخازن وغيره ــ ثم اختار أنه من باب ترك الأكمل والأولى . [٦]

=وسلم لمن استأذنه إلا أن آية التوبة في شأن المنافقين ، وآية النور في حق المؤمنين ، وإذن فالحكم قد اختلف بخصوص المستأذن . والله أعلم .

(١) الحديث عزاه محققوا محاسن التأويل : للترمذي (٦٢٠) وابن ماجه (١٧٩٠) وأحمد (٩٨٧) وعبد الرزاق (٦٨٧٩) وابن أبي شيبة ٤٣/٣ وغيرهم انظر محاسن التأويل للقاسمي ٤٣٧/٥

(٢) تفسير الخازن ١٠٢/٣ وما بعدها ، وانظر كذلك محاسن التأويل للقاسمي

(٣) غفر الله لنا وله ، فوالله لأعجب كيف تحرك بهذه الكلمة لسانه وجرى بها قلمه .

(٤) القرطبي ١٥٤/٨

(٥) تفسير ابن جرير الطبري ٩٩/١٠

(٦) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ــ على هامش الطبري ٩٣/١٠

ومن خلال هذه الأقوال نرى لطف الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم ومراعاة خاطره والحفاظ على مشاعره حيث عجل له بالعفو قبل العتاب ــ إن صح تسميته عتابا ــ فلقد توارى المتخلفون خلف إذن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لهم بالقعود [١] حين قدموا له المعاذير ، وقبل أن ينكشف صدقهم من كذبهم في هذه المعاذير ، وكانوا سيتخلفون عن الركب حتى ولو لم يأذن لهم [٢] ، فعندئذ تنكشف حقيقتهم ، ويسقط عنهم ثوب النفاق ، وتبدو للناس طبيعتهم ، والعتاب في نظر القائلين به من المفسرين هو العتاب على ترك الأولى والأكمل والأفضل وهو التأني وتركهم بلا إذن حتى يتبين أمرهم ؛ وهكذا يكون التلطف في الخطاب كما هو دأب الأحباب .

ورحم الله صاحب الكشاف وغفر لنا وله وعفا عنا وعنه حيث أورد عبارة ينزه عنها مقام النبوة الأعظم ، ويصان عنها رحاب الرسول الأكرم ، وهي عبارة موهمة تصلح مادة دسمة ولقمة سائغة لمن كان في قلبه دخل ، ولمن كان في نفسه هوى . قال جار الله :

(عفا الله عنك) كناية عن الجناية لأن العفو رادف لها ، ومعناه : أخطأت وبئس ما فعلت (لم أذنت لهم) بيان لما كنى عنه بالعفو ، ومعناه : مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالإذن .. الخ، وقد رد عليه صاحب الانتصاف فقال : ليس له أن يفسر الآية بهذا التفسير ، وهو بين أحد أمرين :

إما أن لا يكون ــ أي هذا التفسير ــ هو المراد ، وإما أن يكون هو المراد ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب ، فالزمخشري على كلا التقديرين ذاهل عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام ، ولقد أحسن من قال في هذه الآية : إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأ بالعفو قبل العتب . اهـ [٣]

وللعلامة أبي السعود رد أبلغ من رد ابن المنير على الزمخشري أبان فيه وجه الحق قال رحمه الله :

---

(١) زعم البعض أن الإذن كان بالخروج لا بالقعود ، وقد كانوا عيونا على المسلمين لصالح إخوانهم ، والأول أولى لملاءمة السباق واللحاق حيث جاءت في غزوة تبوك على وجه الذم للمتخلفين والمدح للخارجين .

(٢) حسبما قال مجاهد في الآية فيما رواه عنه ابن كثير ٣٦٠/٢

(٣) انظر الكشاف ١٥٣/٢ ــ وكذا الهامش نفس الموضع

وقال الأزهري : التعتب والمعاتبة والعتاب : كل ذلك مخاطبة إلادلال وكلام المدلين أخلاءهم طالبين حسن مراجعتهم ومذاكرة بعضهم بعضا ما كرهوه مما كسبهم الموجدة انظر اللسان مادة : عتب ٢٧٩٢/٤

" ولقد أخطأ وأسا الأدب ، وبئسما فعل فيما قال أو كتب ، من زعم أن الكلام كناية عن الجناية ، وأن معناه أخطأت وبئسما فعلت ، هب أنه كناية ، أليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف في الخطاب ، والتخفيف في العتاب ، وهب أن العفو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة ، بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء ، أو يسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح إلى رتبة يتعجب منها ، ولا يخفى أنه لم يكن خروجهم مصلحة للدين أو منفعة للمسلمين ، بل كان فيه فساد وخبال حسبما نطق به قوله عز وجل (لو خرجوا ...) [١] وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى (ولكن كره الله انبعاثهم) [٢] ، نعم كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم آثر ذي أثير ويفتضحوا على رؤوس الأشهاد ، ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ، ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم بأنهم غروه عليه الصلاة والسلام وأرضوه بالأكاذيب ، على أنه لم يهنأ لهم عيش ولا قرت لهم عين إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان ، بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان . انتهى [٣]

واستحسن القاسمي عبارة أبي السعود ، ثم قال في محاسنه :

واعلم أن تصديره تعالى فاتحة الخطاب ببشارة العفو دون ما يوهم العتاب من مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام ، وتعهده بحسن المفاوضة ولطف المراجعة ما لا يخفى على أولي الألباب ، ثم ذكر قول سفيان ومكي والداودي ــ المذكور آنفا ــ وقال: وما اشتهر من كون العفو لا يكون إلا عن ذنب غير صحيح فالواجب تفسيره في كل مقام بما يناسبه ..

ونقل عن الشهاب قوله : وهو يستعمل حيث لا ذنب ، كما تقول لمن تعظمه : عفا الله عنك ما صنعت في أمري ؟ ، وفي الحديث : " عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له ".[٤] اهـ

وأتم العلامة الآلوسي الرواية فقال : " .. والله تعالى يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني" ثم رد ــ طيب الله ثراه ــ على جار الله الزمخشري بعبارة لاذعة وكلمة قاطعة .[٥]

---

(١) التوبة ٤٦

(٢) قال الزمخشري في أساس البلاغة : آثر ذي أثير أي : أولا . ثم استشهد على ذلك ببيت للحارث بن مرارة الحنظلي . انظر ص ٢

وفي اللسان : أي : أول كل شئ انظر مادة أثر ٢٧/١

(٣) نقلا من تفسير محاسن التأويل للقاسمي ج٥ / ٤٣٧ وانظر تفسير أبي السعود ٦٩/٤

(٤) محاسن التأويل ٤٣٦/٥ ــ وفي هامشه : الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٦٠) والطبراني في الكبير (١١٦٤٠) والهيثمي في مجمع الزوائد ٣٩/٧ وغيرهم .

(٥) روح المعاني ١٠٧/١٠ وما بعدها

وبعد هذه الجولة مع المفسرين في أقوالهم وآرائهم ترى أن الأولى أن تكون الآية عتابا لطيفا من الحبيب للحبيب على ترك الأكمل والأولى ، وهو التوقف عن الإذن إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال ، أو أن الآية ليس فيها عتاب ولا ما يوهم العتاب بل فيها تكريم وتعظيم ولطف مراجعة وحسن خطاب .

وأختم الكلام هنا بما نقله الزركشي في البرهان عن ابن فورك قال : (عفا الله عنك) معناه : وسع الله عنك على وجه الدعاء (لم أذنت لهم) تغليظ على المنافقين، وهو في الحقيقة عتاب راجع إليهم ، وإن كان في الظاهر للنبي ــ صلى الله عليه وسلم كقوله (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ..) [١] اهـ

النموذج الخامس :

قال الله تعالى : " لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم " التوبة (١١٧)

والحديث هنا عن كلمة (تاب الله على النبي) صلى الله عليه وسلم ، قال المفسرون : تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلف ــ وقد علمت ما فيه ــ وقال أهل المعاني : هو مفتاح كلام ، وذلك أنه لما كان سبب توبة التائبين ذكر معهم كقوله (فإن لله خمسه وللرسول) اهـ [٢].

لما بين الله تعالى فيما تقدم مراتب الناس في أيام غزوة تبوك مؤمنهم ومنافقهم ، والمنفق لها طوعا أو كرها ، والراغب فيها وعنها ، والمتخلف نفاقا أو كسلا ، ثم أنبأنا الله تعالى عما لحق كلا من الوعد والوعيد ، وبعد تمييز الصادقين من غيرهم ختم بفرقة من الصادقين في إيمانهم كانوا قد تخلفوا أصلا للدعة ، ثم ندموا فتابوا إلى الله وأنابوا ، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهم ، ثم أنزل توبتهم في آيتنا هذه ، وصدرها سبحانه بتوبته على رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكبار أصحابه جبرا لقلوبهم ، وتنويها بشأنهم ، وحضا للمؤمنين جميعا على التوبة الصادقة ، وفي ذلك يقول العلامة الآلوسي : " قال أصحاب المعاني : المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار إلا أنه جئ في ذلك بالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ تشريفا لهم وتعظيما لقدرهم ، وهذا كما قالوا في ذكره تعالى في قوله سبحانه " فأن لله خمسه وللرسول " . ، أي : عفا سبحانه عن زلات سبقت منهم يوم أحد ويوم حنين ، وقيل المراد : ذكر التوبة عليه ــ عليه الصلاة والسلام ــ وعليهم ، والذنب بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم من باب خلاف الأولى ، نظرا إلى مقامه الجليل ،

---

(١) يونس ٩٣ وانظر البرهان للزركشي ٢٤٣/٢

(٢) الأنفال ٤١ وانظر زاد المسير ٥١١/٣

وفسر هنا على ما روى عن ابن عباس بالإذن للمنافقين في التخلف ، أما بالنسبة إليهم فلا مانع من صدور ما يستلزم التوبة منهم إذ لا عصمة إلا للأنبياء ، أو أنه في حقهم أيضا من باب خلاف الأولى ، إذ ورد أنه كان لديهم بعض الميل إلى القعود عن تبوك إذ وقعت في وقت شديد .

وقد تفسر التوبة بالبراءة عن الذنب والصون عنه مجازا حيث أنه لا مؤاخذة في كل . ، وظاهر الإطلاق الحقيقة . اهـ ببعض تصرف [١] ويجوز أن نقول : أي : أدام الله توبته على النبي والمهاجرين والأنصار ، إذ النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ معصوم، والمهاجرون والأنصار لم يفعلوا ذنبا في هذه الغزوة ، وتكرير ذكر التوبة في الآية تأكيدا لثباتهم عليها ، وهذا معنى ما ذكره الجمل في حاشيته عن شيخه .[٢]

وكثير من المفسرين يذكرون في معنى هذه الآية بخصوص توبة الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم القولين اللذين نقلناهما عن ابن الجوزي في صدر هذا المبحث .[٣]

وزاد الشوكاني فقال : أو فيما وقع منه ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الاستغفار للمشركين .. ثم قال : وليس من لازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أوله ، لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار .[٤]

وفي الطبري ما يفيد أن التوبة هنا الثبات والبقاء على الدين من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق ويشك في دينه ويرتاب للذي ناله من المشقة والشدة في سفره وغزوه . وأما قوله تعالى (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) أي : من النفقة والظهر والزاد والماء اهـ بتصرف [٥]. وذهب قتادة إلى أن المراد بالتوبة هنا معناها اللغوي وهو الرجوع (فتاب الله عليهم) أي : أقفلهم من غزوتهم .[٦]

---

(١) روح المعاني ٣٩/١١

(٢) الفتوحات الإلهية ٣٢٤/٢ وهذا الرأي هو الذي استصوبه فضيلة الدكتور/ محمد سيد طنطاوي في تفسيره . انظر التفسير الوسيط ٣١٧/٦

(٣) انظر البغوي والخازن ١٥٧/٣ ، الفخر الرازي ٢١٩/١٦ وما بعدها وانظر القرطبي ٢٧٨/٨

(٤) فتح القدير ٥٧٩/٢

(٥) تفسير ابن جرير الطبري ٣٩/١١ وما بعدها

(٦) تفسير الطبري ــ وانظر تفسير ابن كثير ٣٩٦/٢ والمعنى : أرجعهم الله من غزوتهم التي خرجوا إليها في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد الشديد الذي أصابهم فيها حتى لقد ذكر أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم .

وإن تعجب فعجب قول أبي بكر بن العربي : ــ توبة الله على النبي رده من حالة الغفلة إلى حالة الذكر ، وتوبة المهاجرين والأنصار رجوعهم من حالة المعصية إلى حالة الطاعة، وانتقالهم من حالة الكسل إلى حالة النشاط ، وخروجهم عن صفة الإقامة والقعود إلى حالة السفر والجهاد .[١] ولم يشرح لنا آية أية غفلة أصابت النبي صلى الله عليه وسلم، وفيما كانت ومتى وقعت !!

هذا وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن معنى هذه الآية وأن التوبة إنما تكون عن شئ يصدر من العبد والنبي صلى الله عليه وسلم معصوم من الكبائر والصغائر . فأجاب رحمه الله قائلا : " الحمد لله ، الأنبياء ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ معصومون من الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها ، وهم بما أخبر الله عنهم من التوبة يرفع درجاتهم ، ويعظم حسناتهم فـ (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[٢] وليست التوبة نقصا بل هي من أفضل الكمالات ، وهي واجبة على جميع الخلق كما قال تعالى : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات)[٣] فغاية كل مؤمن هي التوبة . ، ثم التوبة تتنوع كما يقال : حسنات الأبرار سيآت المقربين .

والله تعالى قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار ، عن آدم، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وغيرهم ، فقال آدم (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)[٤] وقال نوح (رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين)[٥] وقال الخليل (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب)[٦] وقال هو وإسماعيل (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)[٧] وقال موسى : (أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك)[٨] وقال تعالى (فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين)[٩] .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٠٢٤/٢

(٢) البقرة ٢٢٢

(٣) الأحزاب ٧٢ ــ ٧٣

(٤) الأعراف ٢٣

(٥) هود ٤٧

(٦) إبراهيم ٤١

(٧) البقرة ١٢٨

(٨) الأعراف ١٥٦

(٩) الأعراف ١٤٣

وقد ذكر الله سبحانه توبة داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء ، والله تعالى (يحب التوابين ويحب المتطهرين) ، وفي أواخر ما أنزل الله على نبيه (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) [١]

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في افتتاح الصلاة : " اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد " .

وفي الصحيح كان يقول في دعاء الاستفتاح : " اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي ، واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " .

وفي الصحيح أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله ، علانيته وسره ، أوله وآخره " .

وفي الصحيحين عنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه كان يقول " اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به ، اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت " . ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة .

وقد قال الله تعالى : " واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات " [٢] فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم ، وأكبر طاعاتهم ، وأجل عبادتهم التي ينالون بها أجل الثواب ، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب .

فإذا قال القائل : أي حاجة بالأنبياء إلى العبادات والطاعات ؟ كان جاهلا ، لأنهم إنما نالوا ما نالوه بعبادتهم وطاعتهم ، فكيف يقال إنهم لا يحتاجون إليها ، فهي أفضل عبادتهم وطاعتهم .

وإذا قال القائل : فالتوبة لا تكون إلا عن ذنب ، والاستغفار كذلك ، قيل له : الذنب الذي يضر صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة ، فأما ما حصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة . كما قال بعض السلف : كان داود بعد التوبة أحسن منه حالا قبل الخطيئة ، ولو كانت التوبة من الكفر والكبائر فإن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم خيار الخليقة بعد الأنبياء ، وإنما صاروا كذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من الكفر والذنوب ولم يكن ما تقدم قبل التوبة نقصا ولا عيبا ،

---

(١) سورة النصر كاملة

(٢) محمد ١٩

بل لما تابوا من ذلك وعملوا الصالحات كانوا أعظم إيمانا ، وأقوى عبادة وطاعة ممن جاء بعدهم فلم يعرف الجاهلية كما عرفوها .

ولهذا قال عمر بن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية ، وقد قال الله تعالى " والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما " [١]

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن الله يحاسب عبده يوم القيامة فيعرض عليه صغار الذنوب ويخبأ عنه كبارها ، فيقول : فعلت يوم كذا كذا وكذا؟ فيقول : نعم يارب ، وهو مشفق من كبارها أن تظهر ، فيقول : إني قد غفرتها لك ، وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة ، فهنالك يقول : رب إن لي سيآت ما أراها بعد " .

ثم بين بعد ذلك أن العبد إذا تاب بدلت سيآته حسنات ، وبعد التبديل لا تضره هذه الذنوب ، والله تعالى يبتلى عبده المؤمن بما يتوب منه ليحصل له بذلك من تكميل العبودية وكمال الخشوع لله ما لم يحصل بدون توبة . اهـ [٢] بتصرف في الفقرة الأخيرة .

ولعلك ترى في إجابة شيخ الإسلام نوعا من التعميم لجميع الخلق وليست دفعا لما يتوهم نسبته إلى الأنبياء ، ثم قوله في بداية إجابته " الأنبياء معصومون من الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها . فهل معناها أنهم من الممكن أن يفعلوا الذنوب أيا كانت ولكن لا يقرهم الله عليها ؟ ولو قال : معصومون من الذنوب لكان أحوط وأسلم .

ثم لم يجب ــ رحمه الله ــ إجابة حاسمة جازمة فيما افترضه من سؤال مضمونه : إن التوبة لا تكون إلا عن ذنب ، والاستغفار كذلك . حيث أجاب بكلام خاص بغير الأنبياء ، ولعله من الأوفق أن نقول إجابة على مثل هذا السؤال : إن التوبة والاستغفار لا يلزم ترتبهما على وقوع الذنب ، فالسؤال غير مسلم أصلا ، فإن التوبة والاستغفار في ذاتهما عبادة ، وفي ترديد ألفاظهما عبادة محضة ، وذلك مقتضى العبودية الحقة لله الحق ، وما دام الأمر كذلك فلابد من صدورهما من أكمل الخلق ولك أن تقول سلمنا بالسؤال ، فإن التوبة والاستغفار في حق المصطفون الأخيار مما صدر منهم من خلاف الأولى والأكمل .

إنه صلى الله عليه وسلم لكمال عبوديته لله وكمال محبته له ، وافتقاره إليه ، وكمال توبته واستغفاره صار أفضل الخلق عند الله ، فإن

---

(١) الفرقان ٦٨ ــ ٧٠

(٢) مجموع الفتاوي ١٥ / ٥١ ــ ٥٧

الخير كله من الله ، وليس للمخلوق من نفسه شئ ، بل هو فقير من كل وجه ، والله غني من كل وجه ، وكلما ازداد العبد تواضعا وعبودية ازداد إلى الله قربا ورفعة ، ومن ذلك توبته واستغفاره صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم • والله تعالى أعلى وأعلم •

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات •

* * *

الخاتمة

هذه دراسة تفسيرية لبعض الآيات القرآنية التي يفهم من ظاهرها قدحا أو جرحا لمقام النبوة ، والتي يمكن من خلالها إذا نظر إليها جاهل بأسلوب القرآن الكريم، أو حاقد على الإسلام والمسلمين ، أن يبث أفكارا للأغرار وغير المثقفين ، لتشوه عليهم دينهم ، وتفسد لهم اعتقادهم وتشوه صورة قرآنهم ونبيهم في نظرهم •

أردت من خلال هذه الدراسة الدفاع عن ساحة حضرة صاحب الرسالة ــ صلى الله عليه وسلم ــ بكشف النقاب عما يوهمه ظاهر بعض آيات الكتاب ، ودفع الارتياب عما يمكن أن يتوهمه من ليس من ذوي الألباب ، واستطلاع آراء المفسرين القدامى والمحدثين ، والنظر في أقوالهم ، والموازنة بين بعضها ومناقشة ما يحتاج منها إلى مناقشة قدر الجهد وحسب الإدراك •

كذلك أردت الفائدة بالتعرف على ما سطره الأئمة في هذا الإطار ، والوقوف على مناهجهم وكيفية تناولهم للآيات الواردة في هذا المضمار ، هذا وباب الدراسة إن شاء الله مفتوح لإتمام هذا الموضوع الهام ، وذلك باستقصاء كل ما ورد في ذلك من آيات لتكتمل الفائدة ، ويعم النفع إن شاء الله تعالى ، والله أسأل وإليه أتوسل وبه أستعين أن يوفقني لإتمامه وأن ينفعني به وقارئه ، وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي • وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب •

* * *

أهم مراجع البحث

القرآن الكريم
الإتقان في علوم القرآن للسيوطي م سنة ٩١١هـ ط ١٩٧٨/٤ مصطفى الحلبي
البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي م سنة ٧٥٤هـ ط ١٩٨٣/٢م دار الفكر بيروت
البرهان في علوم القرآن للزركشي م سنة ٧٩٤هـ تحقيق أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم ط مكتبةالتراث ـ القاهرة
أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي م سنة ٥٤٣هـ تحقيق أ/ علي محمد البجاوي ـ ط١٩٨٧م ـ دار الجيل ـ بيروت
أساس البلاغة للزمخشري م سنة ٥٣٨هـ ـ ط ١٩٨٤/٤م ـ دار التنوير العربي ـ بيروت
أسباب النزول للواحدي م سنة ٤٦٨هـ تحقيق أ/ السيد صقر ط/١٩٨٧/٣م مؤسسة علوم القرآن
تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة م سنة ٢٧٦هـ تحقيق أ/ السيد أحمد صقر ط ٢ دار التراث ـ القاهرة ١٩٧٣م
تفسير البغوي بهامش تفسير الخازن ط / الحلبي
تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ط / الهيئة العامة للكتاب
تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين ابن كثير م سنة ٧٧٤هـ ط/ عيسى الحلبي
تفسير الكشاف للزمخشري م سنة ٥٣٨هـ ط دار المعرفة ـ بيروت .
تفسير المنار للأستاذ الشيخ / رشيد رضا ط / ١٣٦٧/٣هـ ـ دار المنار
التفسير الوسيط لفضيلة الدكتور/ محمد سيد طنطاوي
جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري م سنة ٣١٠هـ ط دار الحديث بالقاهرة
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي م سنة ١٢٧٠هـ ـ ط دار التراث
روح البيان للشيخ/ اسماعيل حقي البروسوي ط ١٩٨٨/١م دار الصابوني القاهرة
زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ط١٩٨٤/٣م ـ المكتب الإسلامي
السيرة النبوية لابن هشام تحقيق أ/ محمد محي الدين عبد الحميد ط /١٣٨٤هـ كتاب التحرير
السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض للدكتور/ أحمد جمال العمري ط ١٩٨٨/١م دار المعارف ـ القاهرة

صحيح مسلم بشرح النووي ط مكتبة الغزالي ـ دمشق مؤسسة مناهل العرفان
فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ط / ١٩٧٨م مكتبة القاهرة
فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني م سنة ١٢٥٥هـ ـ ط أولى / ١٩٩٣م ـ دار الحديث ـ القاهرة
لسان العرب لابن منظور ط / دار المعارف المصرية
الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية المعروف بحاشية الجمل ط/ عيسى الحلبي
لطائف الإشارات للإمام القشيري تحقيق أد/ إبراهيم بسيوني ط /٢ / ١٩٨١م ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
محاسن التأويل للعلامة جمال الدين القاسمي م سنة ١٩١٤هـ ـ ط / دار الحديث/٢٠٠٣
مجموع الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية ط/ مكتبة لنهضة الحديثة ١٤٠٤هـ
مفاتيح الغيب للإمام الكبير فخر الدين الرازي ط/ دار الفكر ـ بيروت ١٩٨٥/٣م

إلى غير ذلك .

* * *